الفتوة والفتيان:
النشأة والتاريخ والتقاليد

الشيخ طه الولي(*)

في المجتمع العربي، سواء في مشرقه أو مغربه، طبقة من الأفراد، بالرغم من أنهم جزء من ديموغرافية هذا المجتمع، هم في الواقع، ومن الناحية العقلية ناشزون عنه، وخارجون عليه، ونكاد نقول بأنهم يشكلون في داخل هذا المجتمع طبقة اجتماعية تتعاطف فيما بينها ولا تتآلف مع غيرها. هذه الطبقة دخلت في الحياة العربية منذ العصر الجاهلي واستمرت امتداداً مع الإسلام حتى العصر الحاضر وذلك تحت عنوان «الفتوة».

والفتوة صفة للشابّ من كل شيء. وهي من الصفات الحميدة. بعضهم فسّرها بالحرية والكرم. قال الشاعر:

إنَّ الفَتَى لَفَتَى المَكَارِمِ والعُلَا
لَيْسَ الفَتَى بِمُدَمْلِجِ الصِّبْيَانِ

وقال الحطيئة، الشاعر المخضرم بين آخر الجاهلية وأول الإسلام

وَذَاكَ فَتىً إنْ تَأْتِهِ في صَنِيعَةٍ
إلى مَالِهِ لاَ تَأْتِهِ بِشَفِيعِ

وذهب آخرون إلى تفسير الفتوّة بمعنى الشجاعة والإقدام؛ وإذا أرادوا نعت الرجل بهاتين الخلّتين قالوا: إنه «فتى» أو «ألفتى».

ومن ذلك قول متمّم بن نويرة، الصحابي الشاعر:

إذَا القَوْمُ قَالُوا: مَنْ فَتىً لِعَظِيمَةٍ
فَمَا كُلُّهُمْ يُدْعَى وَلَكِنَّهُ «الفَتَى»

ولعلّ أقدم ما وصل إلينا من أقوال العرب في الفخر بالفتوة بيت من الشعر قاله طرفة بن العبد، أحد أصحاب المعلقات من شعراء الجاهلية، وهو قوله معتداً بنفسه مزهواً بإقدامه وشجاعته وفروسيته:

إذَا القَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتىً
خِلْتُ أنّني عُنِيْتُ فَلَمْ أكْسَلْ وَلَمْ أتَبَلَّدِ

والمعنى: إذا تساءل الناس من يتحدى للمفازة ويقتحمها تبادر إلى ذهني أنني أنا المقصود وأنهم يعنونني ويقولون ليس لهذا الأمر سواك يا طرفة، فلم أكسل ولم أتردد بالقول: أنا لهذه المفازة ولست أتبلّد عن سلوكها.

(*) باحث وكاتب ـ بيروت، لبنان.

ورجل بليد أو متبلّد: إذا أثّر فيه الجهل حتى يذهب به عن فِطن الناس واحتيالهم

ـ الفتوة وما قيل في مفهومها

أثناء كلامنا على الفتوة فإنه لا بد لنا من تقديمها من خلال المعنى الاصطلاحي الذي أخذ به جميع الذين تحدثوا في موضوعها سواء عبر المتصفين بها، أو عبر المفهوم الاصطلاحي الذي عرفوها به. والإطار الذي حدده ابن المعمار البغدادي الحنبلي لهذه الكلمة في كتاب «الفتوة» جاء في قوله:

«إعلم أن الفتوّة اسمٌ موضوعٌ يُقال على أنحاء: أحدها أنه في اصطلاح العرف عبارة عن صفات محمودة، اتّسم بها الشخص على وجه مخصوص. وامتاز بها عن أبناء جنسه فأوجبت له اسم «فتى» ويشهد لذلك قوله تعالى: «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ». **(سورة الكهف، الآية 13)**

«إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ» **(سورة الكهف، الآية 10)**

فلمّا تميّزوا عن أبناء جنسهم بالإيمان بالله، استحقوا اسم الفتيان.

إذن تكون الفتوة بنظر ابن المعمار، صفة في الشخص الذي يختلف عن سواء الناس بما يتحلّى به من صفات ينفرد بها، ولا يشاركه فيها إلّا الذين هم على شاكلته. وهؤلاء يندرجون معه تحت اسم الفتوة ومفهومها، ويستحق واحدهم اسم «الفتى» وجماعتهم اسم «الفتيان» وبذلك تكوّن هذه الجماعة ما يمكن أن يطلق عليه اسم العصبة، أو العصابة، أو حتى الطائفة. ولكن ليس بالمفهوم الديني أو المذهبي أو المهني، وإنما بالمفهوم الطبقي الاجتماعي.

ـ الفتوة في التاريخ

بالرغم من أن الفتوّة بمعناها الاصطلاحي الذي يدور في المفهوم الذي قدمناه قد شاعت في أيام العباسيين، إلّا أن الذين تعاطوها آنذاك حرصوا على أن يجعلوا لها جذوراً تاريخية ترجع إلى أيام النبيِّ ابراهيم عليه السلام الذي عاش قبل ظهور الإسلام بآلاف السنين. هذا ما قاله ابن المعمار الحنبلي الذي عُني بدراسة هذه الحركة. فقد ذكر في كتابه «الفتوّة»:

«فأما مبدأ الفتوة ومنشؤها ابراهيم الخليل، خليل الرحمن، وهو أبو الفتيان، حيث كسّر الأصنام وأعرض عن الأنام حين قال له جبريل: هل لك حاجة؟ وقد ألقوا به إلى النار، فقال: أما إليك.. فلا، فتولى الحق قضاء حاجته بنفسه فقال: «يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ». **(سورة الأنبياء، الآية 69)**

ومدحه فقال:

«إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ» **(سورة هود، الآية 75)**

ووصف أضيافه أنهم قوم مكرمون، فقال: «**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ**» **(سورة الذاريات، الآية 24)**

لمّا قام على خدمتهم ولقيهم بوجه طلق. ولم تزل الفتوّة تتصل بالأنبياء، والصدِّيقين، حتى وصلت إلى نبيّنا عليه السلام. وللشيعة عن بعض أئمتهم تقاليد تدعم هذا الرأي وتزيد عليه، تقول هذه التقاليد إن النبي محمداً صلّى الله عليه وسلم قال: «أفتاكم عليّ» فقال علي: يارسول الله، وما الفتوّة؟ فقال عليه السلام: «هي شرف يتشرف به أهل النجدة والسماح، وأنت يا عليّ فتيٍ وابن فتىً وأخو فتىً» فقال عليّ: يارسول الله، مَنْ أبي، ومَنْ أخي من الفتيان، فقال عليه السلام: «أبوك إبراهيم الخليل، خليل الرحمن، وأخوك أنا، وفتوّتي من فتوّة أبيك، وفتوّتك مني، وسلم إليه سلاحه يوم غزوة حُنَيْن».

نبادر إلى القول بأن هذه الرواية التي ذكرناها هنا، إنما هي من قبيل العلم بالشيء ولا الجهل به، إذ إنَّ إبراهيم الخليل لم يعرف عند رواة الحديث باسم أبي

الفتيان وإنّما عرف بأبي الأنبياء. وأياً ما كان فإنه فوق كل ذي علم عليم.

- الفتى علي وسيفه ذو الفقار

عندما جاء ابن جرير الطبري في كتابه «تاريخ الأمم والملوك» على ذكر وقعة «أُحُد» التي انتهت لغير صالح المسلمين في حربهم لكفار قريش قال = لما قتل علي بن أبي طالب أصحاب الألوية، أبصر رسول الله صلّى الله عليه وسلم جماعة من مشركي قريش، فقال لعلي: إحْمل عليهم، فحمَل عليهم ففرق جمعهم وقتل عمرو بن عبد الله الجُمحي، قال: ثم أبصر رسول الله صلّى الله عليه وسلم جماعة من مشركي قريش، فقال لعليّ: إحمل عليهم، ففرق جمعهم وقتل شيبة بن مالك، أحد بني عامر بن لُؤَي، فقال جبريل - من الملائكة - يا رسول الله، إن هذه للمؤاساة، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «إنه مني وأنا منه» فقال جبريل: وأنا منكما، قال: فسمعوا صوتاً:

«لَا سَيْفَ إلَّا ذُو الفِقَارْ
وَلَا فَتَى إلَّا عَلِيّ

وعندما أورد الدكتور ابراهيم بسيوني في كتابه «الإمام القشيري» عن كتاب ابن جرير الطبري المذكور ذيّله بقوله: مع احترامنا للطبري، إلّا أنه كما يرى بعض النقّاد، كان لا يدقق كثيراً في الروايات المتصلة بآل البيت، ووُجهت إليه التهمة بذلك.

نقول: السيف «ذو الفقار» أهداه المقوقس عظيم القبط في مصر، للنّبي صلّى الله عليه وسلم. وفي بعض الأخبار، إنه أصابهُ في غنيمة خيبر الحصن الذي كان لليهود بالقرب من المدينة المنوّرة.

وجدير بالذكر أن هذا الرجز، ما زال يتردد على ألسنة المتبارزين بالسيف والترس و(لعبة الحكم المعروفة عندنا) فإنهم عندما يتبادرون إلى المبارزة بروح رياضية، يفتتحون مواجهتهم بعضهم لبعض بعد لثم صفحة السيف بالقول:

«لا فتى إلّا علي
ولا سيف إلّا ذو الفقار

ثم يأخذون السيف ويهزونه بأيديهم هاتفين بصوت مرتفع: «صحائف الإمام علي».. وهي عبارة تحمل معنى التحية للإمام المذكور باعتباره أول الفتيان في حركة الفتوة.

وجدير بالذكر أن الخصال التي يفترض بالفتى أن يتحلّى بها لم تكن دائماً واحدة، بل إنها تتبدل وتتغير تبعاً لمفهوم الفتوة والمنتمين إليها من الطبقات الاجتماعية المختلفة، بمعنى أن الفتوة والفتيان لها مفاهيم تختلف باختلاف النظرة إليها. ذلك أن هناك فتوة خاصة بأهل التقوى وأصحاب الدين، وأخرى خاصة بالمتصوفين أهل الطريق، وثالثة يتميز بها الخارجون على القانون والمستهترون بأمن المجتمع والعابثين بالراحة العمومية؛ هذا بالإضافة إلى الفتوة الرسمية التي رفعت شعارها الدولة القائمة لاستقطاب الفتيان واحتواء نشاطهم لصالحها.

أما فتوة أهل التقوى وأصحاب الدين، فإن مبادئها لخّصها لنا حديث منسوب إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلم، رواه جعفر الصادق، من أئمة الشيعة الاثني عشرية، عن جده، يقول جعفر: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «لفتيان أمّتي عشر علامات: قال: يا رسول الله، وهل لأمتك فتيان؟ قال عليه السلام «نعم، وأن الفتوة الأولى من فتوّة أمتي» قال: وما تلك العلامات يا رسول الله؟ قال عليه السلام:

1 - صدق الحديث
2 - والوفاء بالعهد
3 - وأداء الأمانة
4 - وترك الكذب
5 - والرحمة لليتيم
6 - وإعطاء السائل
7 - وبذل النائل

8 ـ وإكثار الصنائع
9 ـ وقرى الضيف
10 ـ ورأسهنّ الحياء

هذه العلامات العشر تعكس في الواقع المواصفات التي وضعت لأهل الفتوة، وربما نسبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أجل إعطائها مدداً من المكانة الروحية للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليزيدها قوة وتأكيداً.

على أننا نميل إلى الرأي القائل أن لفظة «الفتى» التي وردت في هذا الحديث قد استعملها النبي صلى الله عليه وسلّم بدلاً من كلمة «العبد» وذلك في معرض التعامل مع الخدم لكيلا يخاطبوا بما يجرح كرامتهم أو يعقّد مشاعرهم النفسية. فقد جاء في الحديث الشريف قول النبي صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه: «لا يقل أحدكم عبدي وأمَتي، ولكن فتاي وفتاتي». وقد كان المسلمون في بلاد الأندلس يلتزمون بهذه الملاحظة النبوية، ويطلقون على أرقّائهم من المماليك الصقالبة (الأوروبيين) اسم «الفتيان» وهو الاسم الذي كان إلى ذلك الوقت يقابل كلمة «المماليك» في بلاد الشرق العربي. وفي الأخبار الأندلسية تبرز كلمة «فتى» في أكثر من مناسبة، لا سيما عندما كثر اعتماد الخلفاء الأمويين في الأندلس على عنصر الصقالبة، وكان هؤلاء أخلاطاً من الجليقيين (النصارى الأسبان) والألمان والفرنسيين واللونبارديين الإيطاليين. وكان معظمهم في الأساس أطفالاً يقتنصهم القراصنة والنخاسون تجار الرقيق ويبيعونهم من المسلمين في الأندلس. ويقول لسان الدين بن الخطيب في كتابه «أعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام» أنه كان بمدينة الزهراء عند وفاة الناصر لدين الله 3750 «فتىً»، وعدد النساء بالقصر 6750 «فتاة». وتوصل بعض هؤلاء الفتيان إلى أعلى المراكز في الإدارة والجيش، وتمتعوا بالسلطة والنفوذ في البلاط وكذلك في الأوساط الاجتماعية الأندلسية. ففي عهد الناصر لدين الله المذكور كان من هؤلاء الفتيان «نجدة» القائد الأعلى للجيش الأموي. و«أفلح» صاحب الخيل، أي قائد الفرسان و«درّي» صاحب الشرطة، و«ياسر» و«تمّام» صاحبا النظر على الخاص (أي الشؤون الشخصية للخليفة).

وتكرّرت لفظتا فتى وفتاة في النقائش المرقومة على شواهد القبور في الأندلس، وكذلك ورد لقب «الفتى الكبير العامري» في نص إنشاء بتاريخ 377 (هـ) في اسبانية، وكذلك «الفتى الكبير نُمْير بن محمد العامري» بنقش مؤرخ في 395 (هـ) وذلك على صندوق من العاج في اسبانية أيضاً. والغالب أن هذين اللقبين كانا من ألقاب المماليك في الأندلس الإسلامية.

أما ابن المعمار الحنبلي فقد قدّم تعريفاً آخر للفتى والفتوة وذكر في إطار هذا التعريف عشر علامات أخرى، وذلك حينما قال في كتابه «الفتوة»: ينبغي أن الفتوة:

1 ـ تعاضد
2 ـ وأخوة
3 ـ وصدق
4 ـ ومروءة
5 ـ وليست بأكل الحرام
6 ـ وارتكاب الآثام
7 ـ بل هي عبادة الرحمن
8 ـ وترك العدوان
9 ـ ومخالفة الشيطان
10 ـ والعمل بالقرآن

وقد نقل لنا أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني المتوفى في عشر الثلاثين وأربعماية من الهجرة في كتابه اللطيف الطريف «الجماهر في معرفة الجواهر» الحدود التي تفصل بين المروءة والفتوة وفقاً للقواعد الخلقية عند أهل السنة والجماعة وذلك حيث قال:

«المروءة تقتصر على الرجل في نفسه وذويه وحاله. والفتوّة تتعدّاه وإيّاها إلى غيره. والمرء لا يملك غير

نفسه وقِنْيته التي لا ينازع فيها أنها له، فإذا احتمل مغارمَ الناس، وتحمل المشاق في اراحتهم ولم يضنّ بما أحلّ الله له وحرّمه على من سواه فهو الفتى الذي اشتهر بالقدرة عليها وعرف بالحلم والعفو والرزانة والاحتمال والتعظّم بالتواضع، ترقّى إلى العلياء وإن لم يكن من أهلها، وسُوّد باستحقاق لا عن خلوّ دار» ـ ثم يقول البيروني:

«لهذا حدّت الفتوة بأنها بِشْر مقبول، وتأمل مبذول وعفاف معروف، وأذىً مكفوف، . . . قال الشاعر:

وَلَيْسَ فَتَى الفِتْيَانِ مَنْ رَاحَ واغْتَدَى
لِشِرْبِ صَبُوحٍ أَوْ لِشِرْبِ غَبُوقِ!.

ولعلّنا نستطيع الاكتفاء بما قاله ابن المعمار الحنبلي وما نقلناه عن غيره في بيان مفهوم الفتوة والفتيان عند أهل السنّة والجماعة. ولمن يطمع بالمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع، فإنه يمكنه الرجوع إلى المؤلفات الكثيرة المعنية به من أجل تحقيق رغبته.

وأهل الطريق من المتصوفة بدورهم ادلوا بدلوهم في تحديد مقومات الفتوة والصفات التي يجب على الفتى أن يلتزمها ويتميز بها. وإننا نستطيع أن نلتمس عند الإمام عبد الكريم القشيري هذه المقومات والصفات التي تناولها بالتفصيل في «رسالته» تحت عنوان مستقل هو «الفتوة» بيّن لنا عبر هذا العنوان رأي أهل الطريق، وهو من أقطابهم، كيف يكون التخلّق بأخلاق الفتيان وذلك في إطار المعطيات الخلقية التالية:

الصفح عن عثرات الإخوان، وأن لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك، وأن لا تخاصم أحداً، وأن لا تنافر فقيراً، ولا تعارض غنياً، وأن يستوي عندك المقيم والطارىء، وأن تترك ما تهوى لما تخشى، وأن تكفّ الأذى، وأن تبذل الندى، وأن لا تدّخر، أو تعتذر، وأن تظهر النعمة، وتستر المحنة، وألّا تربح على صديقك، وأن تؤثر حين تعطى، وتشكر حين تمنع.

وفي مناسبة ثانية قال القشيري: الفتوة عمادها القلب السليم، الامتثال الصادق، والبعد عن الشطط، والجهالة، والتكبر، والبغض.

ثم إنه بيّن لنا في نفس رسالته الفرق بين عبودية العابد وبين فتوة الفتى وذلك بقوله: القصاص مشروع والعفو خير، فمن جنح إلى استبقاء حقه فمسلّم له، ومن نزل عن ابتغاء حقه فمحسن، فالأول: صاحب عبادة بل عبودية، والثاني: صاحب فتوة بل حرية.

ومن الملاحظ أن القشيري قد تناول مفهوم الفتوة والفتيان خُلْواً من الالتفات إلى الروايات التي رددتها بعض الأسانيد المذهبية ولم يلتفت من قريب أو بعيد إلى القصة التي حكاها الطبري في تاريخه عن المحاورة التي نسبت إلى جبريل والنبي صلّى الله عليه وسلّم خلال معركة أُحُد بشأن سيف علي بن أبي طالب ذي الفقار واطلاق لقب «الفتى» على هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه تنويهاً بالشجاعة التي أبداها آنذاك.

ومن هذا المنطلق المتشبع بالمفهوم الإسلامي على عقيدة أهل السنة والجماعة حدد القشيري مبادىء الفتوة ومواصفات الفتيان.

وكما أعرض القشيري عن المفهوم الطبري للفتوة والفتيان فإنه في نفس الوقت لم يتوان عن مهاجمة المتصوفين القائلين بنظرية الحلول مثل الحلاج الذي أعدم بتهمة الإلحاد والزندقة سنة 310 هـ (922 م) فلقد اعتبر الحلاج إبليس وفرعون من الفتيان ووجهة نظره في ذلك أن إبليس قد عصى الله لأن الله شاء أن لا يطيع، فهو بهذا قد ضحى بنفسه في سبيل تنفيذ المشيئة الإلّهية والامتثال لإرادة الله العليا. فقد قال الحلاّج في كتابه «الطواسين» إن سجدت سقطتُ عن بساط الفتوة، وأن فرعون أغرق في اليمّ ولم يرجع عن دعواه، لأنه لم يقرّ بالوساطة البتّة».

فكان رد القشيري على هذه النظرية «الحلاجيّة» وإن لم يذكر الحلاج بالاسم بدحضها مبيناً أن كلاً من

إبليس وفرعون ارتكبا أعمالاً تناقض قيم الفتوّة، وذلك أنهما أظهرا فساد النية، وخراب القلب، وسوء القصد؛ وحين وقع إبليس في الجهل، بزعم أن النار أفضل من الطين معتبراً بالظواهر دون الجواهر، وحين وقع فرعون في اللجاجة والتحدّي بأن طلب إلى هامان أن يبني له صرحاً ليبلغ أسباب السماوات العُلَى، حينما تردّيا في هذه المهاوي ابتعد عن قلبيهما أدنى ارتباط بالفتوة التي عمادها القلب السليم، والامتثال الصادق، والبعد عن الشطط والجهالة، والتكبر البغيض.

ـ الفتوة المتحدّية للمجتمع والنظام العام

إذا كانت الفتوة قد لبست أول الأمر جبة العلماء من أهل التقوى والصلاح، أو خرقة المتصوفين من أهل الطريق والزهادة، فإنها ما لبثت أن تجلببت فيما بعد بأردية النشاز عن روح الجماعة، ورمت قفّاز التحدي بوجه القانون والنظام العام ورفعت شعار العبارة، والدعارة، والشطارة والصعلكة، وهي أسماء أصبحت كلها مرادفة لكلمة الفتوة التي تنكّرت لكل ضوابط الالتزام بالقوانين المرعية والانسجام مع المجتمع الذي كان يحيط بها وتعيش فيه.

هذه الفتوة، كما يقول لويس غارديه (Louis Gardet) في كتابه «أهل الإسلام» (Les Hommes de L'Islam): «يمكن قرنها بفضيلة المروءة العربية القديمة، في مطلع العهد العباسي، وفي العراق ـ فارس خاصة تولّدت عن هذا المبدأ زُمر وثيقة الالتحام، زُمر سباب أعزاب غالباً، نوع «من رابطات» مستقلة مؤسسة على التعاون وتقاسم الزّاد، وقد يكون للفتيان مهنة، وقد لا يكون، ولا تعتمد الرابطة مطلقاً على نسب عائلي أو قبلي، أو حتى عرقي، كانت أحياناً، عند بدء تكوّنها على الأقل، تسمو على الانتساب الديني، وأحياناً على العكس، كانت ترسخ فيه. لكنها كانت تتميّز بتحزّب يجعل من التضامن بين الأعضاء الصالح المشترك الوحيد الواجب إنماؤه.» ا. هـ.

ولعلّ أهل هذه الفتوّة وجدوا في الصعاليك من شعراء الجاهلية مثلهم الأعلى، فاحتَذْوا بهم حذو القزّة بالقزّة. ومن هؤلاء الصعاليك الجاهليين عروة بن الورد العبسي الذي كان، كما يقول المثل السائر في زماننا «كسَّاباً وهاباً». قال عروة، وكان يعرف بعروة الصعاليك:

أَقِلِّي عَلَيَّ اللَّوْمَ يا ابْنَةَ مَالِكٍ
وَنَامِي، وإِنْ لَمْ تَشْتَهِي ذَاكَ فَاسْهَرِي
لَحَى اللهُ صُعْلُوكاً إِذَا جُنَّ لَيْلُهُ
مُصَافِي المَشَاشَ آلِفاً كُلَّ مَجْزَرِ
وَلَكِنَّ صُعْلُوكاً صَفِيحَةُ وَجْهِهِ
كَمِثْلِ شِهَابِ القَابِسِ المُتَنَوِّرِ
مُطِلًّا عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ
بِسَاحَتِهِمْ زَجْرَ المُنِيحِ المُشَهَّرِ
وَإِنْ بَعُدُوا لَا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ
تَشَوُّقَ أَهْلِ الغَائِبِ المُتَنَظَّرِ
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَ المَنِيَّةَ يَلْقَهَا
حَمِيداً، وإِنْ يَسْتَغْنِ يَوْماً فَأَجْدِرِ
بَرِيحٌ عَلَى اللَّيْلِ أَضْيَافَ مَاجِدٍ
كَرِيمٌ وَمَالِي سَارِحاً مَالُ مُقْتَرِ

ونسب إلى عروة شعر يصف فيه الصعلكة ويسمى نفسه صعلوكاً وهو قوله:

لَحَى اللهُ صُعْلُوكاً مُنَاهُ وَهَمُّهُ
مِنَ الدَّهْرِ أَنْ يَلْقَى لَبُوساً وَمَطْعَمَا
يَنَامُ الضُّحَى، حَتَّى إِذَا لَيْلُهُ انْتَهَى
تَنَبَّهَ مَثْلُوجَ الفُؤَادِ مُوَرَّمَا
وَلَكِنَّ صُعْلُوكاً يُسَاوِرُ هَمَّهُ
وَيَمْضِي عَلَى الهَيْجَاءِ لَيْثاً مُصَمِّمَا

فَـذَلِـكَ إنْ يَـلْقَ الـكَـرِيـهَـةَ يَـلْقَـهَـا
كَـرِيـمـاً، وَإنْ يَـسْتَـغْـنِ يَـوْمـاً فَـرُبَّـمَـا

هـذه الفتوة هي التي انـطبعت صورتهـا في أذهـان النـاس وأصبحت بمفاهيمهـا القـائمـة عـلى التحـدي والعنف، وهؤلاء هم الفتيان الذين قُـدّت قلوبهم من الصخـور العـاتيـة وتحكمت في ممارسـاتهم جبـلاتهم القاسية. ويمكن القول بأن الفتوة ضمن هذه المفـاهيم والممارسات كـانت العنوان الـذي استقطب تحته جميع الأشخاص الذين وصفوا بأنهم الخارجون عـلى النظام العـام والمتحدُّون للقـانون والعـابثـون بـأمن المجتمـع والمثـيرون للقلق والاضـطراب في أوسـاط النـاس العـاديـين، وأنهم يعيشـون عـلى حسـاب أهـوائهم الشخصيـة غير عـابئين بـالرأي العـام الـذي يكتنفهم ويحيط بهم.

أجل هكذا كانت الفتوة وتحت لوائها تفشت حركة الفتيـان الذين عـرفهم الناس بـأسماء تتعـدد ألفاظهـا ولكن دلالاتهـا تبقى واحدة. فـالفتيان هم: الـذّعّـار والدّعّار والعيارون والشطّار والأوباش والأحداث.

هـذه الأسماء كلهـا تعكس نفس المـواصفـات التي عرفها الفتيان في كل البلدان وعـبر مختلف الأزمان.. وها هو أبـو القاسم أحمـد بن علي التميمي البغـدادي صاحب «حكايـة أبي القاسم البغـدادي» الذي عـاش في القرن الرابـع الهجري وزعم أنـه هو الـذي أسس الشطارة، وبوّب العبارة ووضع لهـذه وتلك تقاليـدهما وآدابها وشروطهما، ها هو يقدم نفسه بنفسـه ويقول: «أنـا الموج الكـدر، أنا العقـل العسر، أنا النّـار، أنـا العيّـار، أنـا الـرحى إذا استـدار، أنـا الـذي أسّست الشطارة، وبوّبت العبارة، أنا فرعون، أنا هامان، أنا النمرود، أنا الشيطان..».

ويمكن القـول بـأن هؤلاء الفتيـان، عـلى اختـلاف الأسـماء التي اشتهـروا بهـا، كـان يجمـع بينهم قـاسم مشترك ألَا وهو «الـرفض» أو ما يمكن أن نـطلق عليه الكلمة الدارجة اليوم «الاحتجاج» وكذلـك فإن البؤر التي كانوا يجتمعون فيها عرفت دائماً بأنها مستودع غنيّ بـ «الأوباش» الذين يهـوون المغامـرة، ويكونـون دائماً مصـدر كل شغب، وعـلى أهبة للثـورة والهـرج وشق عصا الطاعة، وهم من أحسن الزبـائن لرجـال الأمن والشرطة لا سيما عـندما تكـون الدولـة قويـة. أما إذا ضعفت الـدولـة فـإن هؤلاء الـرجـال يتحـولـون هم أنفسهم إلى هدف لتلك الفئآت التي يطيب لها إثبـات وجودها وتأمين مغانمها عـلى حساب سـلامة المجتمـع واستقرار الأمن بين الناس.

هذه الفتوة «الرافضة» أو «المحتجة» يمكن تنظيرهـا في ضوء الحركات الفوضوية في عصرنا، إذ إن مبادئها وأخـلاقياتهـا، وميثـاق الشرف فيـما بينهـا، كـل هـذه المفـاهيم والقيم كـانت في خـدمتهـا وليس العكس. ولذلك فإنه من الخـطأ المعادلـة بين هـذه الفتوة وبـين الفـروسيـة (Chevalerie) التي كـانت أحـد عنـاصر النـظام الاقطاعي العسكـري الديني في أوروبـة إبـان العصر الوسيط، عندما كان المنـتظمون في سلك هـذه الفروسية يكرسون سـلاحهم وقوتهم ونفـوذهم لحمايـة الضعيف والدفاع عن حقه ورد غائلة العـدوان عليه. بيـد أننا نبـادر إلى القول بـأن التماثـل ربمـا تحقق بـين بـعض «الفـتيــان» في الشرق الـعــربي وبــين بعض «الفرسان» في البـلاد الغربيـة ولكن هذا التـماثل كـان عـرضياً ولم يكن أصيـلاً. ولعلنا نسـتطيـع أن نضرب عـلى هـذا التـماثـل مثـلاً بـواحـد من الفتيـان الـذين اضطرب بهم حبل الأمن في بغداد إبان القرن الرابـع الهجري، وهو ابن حمـدي الذي اشتهـر آنذاك بـاسم لص بغـداد الشريف. وفيـما يـلي خبر هـذا اللص الشريـف كما جاء في حكاية لبعض التجـار البغداديـين يقـول فيها «إنـه خرج بسلع لـه يريـد واسط. وكـان الـبريدي بهـا والدنيـا مفتتنة جـداً، فقطع عليـه وعلى الكار (السفينة) الذي كان فيـه لصّ في الطريق يقـال لـه ابن حمدي، فـأفقره، فسهـل عليه الموت، وطرح

نفسه لابن حمدي، لما سمع عنه من نخوة ومروءة. يقول التاجر:

وكنت أسمع وأنا ببغداد أن ابن حمدي هذا فيه فتوّة وظرف، وأنه إذا قطع الطريق، لم يعرض لأرباب البضائع اليسيرة التي تكون دون الألف درهم، وإذا أخذ ممن حاله ضعيفة شيئاً قاسمه عليه، وترك شطر ماله في يديه، وأنه لا يفتش امرأة، ولا يسلبها، وحكايات كثيرة مثل ذلك، فأطمعني ذلك في أن يرقّ لي، فصعدت إلى الموضع الذي هو جالس فيه وخاطبته في أمري، وبكيت ورققته ووعظته، وحلفت له أن جميع ما أملكه قد أخذه، وأني احتاج إلى أن أتصدّق من بعده. فقال لي: ياهذا، الله بيننا وبين هذا السلطان الذي أحوجنا إلى هذا، فإنه قد أسقط أرزاقنا وأحوجنا إلى هذا الفعل، ولسنا فيما نفعله نرتكب أمراً عظيماً أعظم مما يرتكبه السلطان... (المقصود بالسلطان هنا الخليفة أبو اسحاق إبراهيم المتقي لله ابن المقتدر وكانت مدته من سنة 329 إلى سنة 333 هـ التي خلع فيها من الخلافة).

وكانت نهاية الحوار بين التاجر وهذا «اللّص الشريف» أن هذا الأخير استيقظت فيه نخوة الشهامة واستحكمت بضميره فضائل المروءة فبادر إلى اعطاء التاجر شطر ماله الذي كان قد استلبه منه وزاد على ذلك بأن أرفقه بواحد من عصابته لايصاله إلى مأمنه... الأمر الذي حمل هذا التاجر على الإعجاب بابن حمدي، لصّ بغداد الشريف، والدعاء له بالخير والتوفيق، وراح يردد على البغداديين ما لقي من هذا اللص الشريف من الرفق والمروءة وحسن الصنيع والروح الإنسانية العالية.

وهذا الفتى، ابن حمدي، لصّ بغداد الشريف أليس هو الذي تكرر في أيامنا باسم «اللص الشريف» متمثلاً بالممثل السينمائي أرسين لوبين تارة ونظيره شارلوك هولمز تارة ثانية، حتى يصح لنا أن نقول مع المثل السائر: ما أشبه الليلة بالبارحة!.

والغريب أن هذه الفتوة التي نتحدث عنها الآن كان «فتيانها» يبتزون من الناس أموالهم ويفرضون عليهم «الخوّات» - الإتاوات للحماية - ومع ذلك حرصوا على أن يعتبروا في المجتمع من أصحاب الحميّة والشرف!.

ومما ينقل عن الجاحظ في تبرير تصرفات هؤلاء الناشزين عن التوازن الاجتماعي في بيئتهم المحلية ومحيطهم حكاية لطيفة ظريفة رواها القاضي أبو علي المحسّن بن علي، التنوخي الكاتب الأديب المتوفى سنة 384 هـ (994 م) في كتابه الممتع «الفرج بعد الشدّة» وفيها حوار جرى بين تاجر قاده سوء طالعه إلى العثار بشرك أحد العيارين فاستشهد بما جاء في كتاب «اللصوص» للجاحظ وهو يبرر للتاجر ما يقوم به من سلب مال التجار الذين خانوا أماناتهم ومنعوا زكاة أموالهم. وإني لا أرى حرجاً في إعادة رواية هذه الحكاية هنا راجياً أن يجد القارىء فيها لوناً من منطق العيارين من أهل الفتوة في تعاطيهم مع تقاليدهم التي خرجوا بها عن مألوف التقاليد الاجتماعية في أيامهم وزمانهم.

قال أبو علي المحسّن بن علي القاضي التنوخي:

«كنت مسافراً في بعض الجبال، فخرج علينا ابن سياب الكردي، فقطع علينا الطريق، وكان بزيّ الأمراء لا بزيّ القطّاع، فقربت منه لأنظر إليه وأسمع كلامه، فوجدته يدل على فهم وأدب، فداخلته، فإذا برجل فاضل، يروي الشعر، ويفهم النحو، فطمعت فيه وعملت في الحال أبياتاً أمدحه بها، فقال لي: لست أعلم إن كان هذا من شعرك، ولكن أعمل لي على قافية هذا البيت ووزنه شعراً الساعة لأعلم أنك قلته، وأنشد لي بيتاً.

قال: فعملت في الحال إجازة له ثلاثة أبيات،

فقال لي: أي شيء أخذ منك لأرده إليك؟

قال: فذكرت له ما أُخذ مني، وأضفت له قماش رفيقين كانا لي فردّ لي جميع ذلك، ثم أخذ من أكياس التجار التي نهبها، كيساً فيه ألف درهم، فوهبه لي، فجزيته خيراً ورددته عليه فقال: لِمَ لا تأخذه؟

فورّيت عن ذلك

فقال: أطَبّ تَصْدُقني

قلت: وأنا آمِنٌ

فقال: أنت آمن.

فقلت: لأنك لا تملكه، وهو من أموال الناس الذين أخذتها منهم الساعة ظلماً، فكيف يحل لي أن آخذه؟

فقال لي: أما قرأت ما ذكره الجاحظ في كتاب «اللصوص» عن بعضهم؟

قال - أي الجاحظ - إن هؤلاء التجار خانوا أماناتهم، ومنعوا زكاة أموالهم، فصارت أموالهم مستهلكة بها، واللصوص فقراء إليها، فإذا أخذوا أموالهم - وإن كرهوا أخذها - كان ذلك مباحاً لهم، لأن عين المال مستهلكة بالزكاة، وهؤلاء تستحقون أخذ الزكاة بالفقر، شاء أرباب الأموال أم كرهوا.

قلت: بلى قد ذكر الجاحظ هذا، ولكن من أين يُعلم أن هؤلاء ممّن استهلكت الزكاة أموالهم؟

فقال: لا عليك، فأنا أحضر هؤلاء التجار الساعة، وأريك بالدليل الصحيح أن أموالهم لنا حلال.

ثم قال لأصحابه، هاتوا التجار، فجاءوا.

فقال لأحدهم: منذ كم أنت تتجر في هذا المال الذي قطعنا عليه؟

فقال: من كذا وكذا سنة...

قال: فكيف كنت تخرج زكاته؟ فتلجلج، وتكلم بكلام من لا يعرف الزكاة على حقيقتها، فضلاً عن أن يخرجها.

ثم دعا آخر، فقال له: إذا كان معك ثلاثمائة درهم وعشرة دنانير، وحالت عليك السنة، فكم تخرج منها للزكاة، فما أحسن أن يجيب.

ثم قال آخر: إذا كان معك متاع للتجارة، ولك دين على نفسين، أحدهما مليءٌ والآخر مُعسر، ومعك دراهم، وقد حال الحول على الجميع، فكيف تخرج زكاة مالك؟

قال: فما فهم السؤال، فضلاً أن يتعاطى الجواب.

فصرفهم، ثم قال لي: بان لك صدق حكاية أبي عثمان الجاحظ؟ وإن هؤلاء التجار ما زكّوا قطّ؟ خذ الآن الكيس، فأنت أولى به.

فأخذته، وساق القافلة ليتصرف بها.

فقلت: إن رأيت أيها الأمير أن تُنْفِذ معنا من يبلّغنا المأمن، كان لك الفضل. ففعل ذلك - انتهت الحكاية -

أقول: هذه الحكاية التي تداخلت في ثناياها المعاني والأفكار والخواطر ما بين الأدب والفقه والفلسفة، قد جعلت أبا عثمان الجاحظ هدفاً لسهام النقد، بل الهجوم اللاذع عليه من قِبَل العلماء الملتزمين الذين وصموه بالتحلّل من القيم الأخلاقية والدينية والقومية. ومن هؤلاء العلماء أحد أئمة أهل السنة والجماعة أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي المتوفى سنة 429 هـ (1037 م)، فلقد تناول هذا العالم الجاحظ في كتابه «الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية» ومرّغ سمعته في وحول الاتهامات الجارحة حيث قال وهو يتحدث عن «كتاب اللصوص» الذي اعتمد عليه ذلك العيّار في تبرير مصادرة أموال التجّار والتصرف بها تصرف المالك في ملكه: قال البغدادي «... وأما كتبه المزخرفة، فأصناف، منها كتاب في حيل اللصوص. وقد علم بها الفسقة وجوه السرقة... إلى أن يقول...»..
ومن افتخر بالجاحظ سلمناه إليه قول أهل السنة في الجاحظ، كقول الشاعر فيه:

لَـوْ يُمْسَـخُ الخِنْـزِيـرُ مَـسْخـاً ثَـانِيـاً
مَـا كَـانَ إلاَّ دُونَ قُـبْـحِ الـجَـاحِظِ
رَجُـلٌ يَـنُـوبُ عَنِ الـجَحِيـمِ بِـنَـفْـسِـهِ
وَهُـوَ الـقَـذَى فـي كُـلِّ طَـرْفٍ لاحِظِ!

- الفتيان يوظفون فتوتهم في الحركات السياسية والصراعات الدينية

إن التحلّل من القيم المثالية، والأخلاقيات الاجتماعية والابتعاد عن ضوابط الالتزام بالنظام العام، جعل من طبقة الفتيان والذين هم من فصيلتهم وعلى شاكلتهم احتياطياً ذا شأن بالنسبة للحركات الباطنية التي كانت تجندهم للوثوب على الحكام المسلمين أهل السنة والجماعة، واغتيالهم والقيام بأعمال تخريبية ضد المصالح العامة والمؤسسات الأهلية والرسمية. ولذلك فإن المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون (Louis Massignon) لم يخطىء حين أبرز العلاقة التي جمعت في التاريخ الإسلامي بين الفتوة وبين الدعوة الإسماعيلية التي كانت واحدة من الحركات الباطنية التي شُقي بها الإسلام والمسلمون لعشرات من السنين المنهكة.

ومن الامارات الدالة على استعانة الحركات الباطنية لجماعة الفتيان ما ذكره أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي المتوفى سنة 597 هـ (1200 م) في كتابه «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» من أنه في سنة 416 هـ (1025 م) انبسط العيارون انبساطاً أسرفوا فيه، وخرقوا هيبة السلطان، وواصلوا العمْلات وأراقوا الدماء... وكان صاحب مصر (الظاهر لإعزاز دين الله العبيدي) قد أنفذ إلى يمين الدولة، محمود بن سبكتكين (الغزنوي، مكسّر الأصنام) خلْعة مع أبي العباس أحمد بن محمد الرشيدي الملقب زين القضاة إلى الخليفة لاستمالته إلى الدعوة الإسماعيلية وإغرائه بخلع طاعة الخليفة العباسي القادر بالله.. فجلس القادر بالله في يوم الخميس لتسع بقين من جمادى الآخرة لأبي العباس الرشيدي بعد أن جمع القضاة والشهود والفقهاء والأماثل، وأحضر أبو العباس ما كان حمله صاحب مصر، وأدى رسالة يمين الدولة بأنه الخادم المخلص الذي يرى الطاعة فرضاً ويبرأ من كل ما يخالف الدولة العباسية.. فلما كان فيما بعد هذا اليوم أخرجت الثياب إلى باب التوبي (أحد أبواب بغداد، وكان هذا الباب «باب العتبة» أيضاً، فقد كانت فيه العتبة التي يقبلها الرسل والأمراء والملوك ورؤساء الحجاج إذا قدموا بغداد) وحفرت حفرة طرح فيها الحطب ووضعت الثياب فوقه، وحُرقت بالنار، وأبو الحسن علي بن عبد العزيز والحجّاب حاضرون والعوام ينظرون، وسُبك المركب فخرج وزن فضة أربعة آلاف وخمسمائة واثنتين وستين درهماً، فتصدق به على ضعفاء بني هاشم.

فكانت النتيجة أن أوعز الإسماعيليون إلى عملائهم في بغداد أن يهجوا العيارين (الفتيان المرتبطين بالعبيديين الاسماعيليين) فانطلق هؤلاء في حواري بغداد وأزقتها وأسواقها التجارية... وكبسوا دور الناس نهاراً وفي الليل بالمشاعل والموكبيات (التظاهرات) وكانوا يدخلون على الرجل فيطالبونه بذخائره ويستخرجونها منه بالضرب، كما يفعل المصادرون، ولا يجد المستغيث مغيثاً، وقتلوا ظاهراً وانبسطوا على الأتراك، وخرج أصحاب الشرط من البلد، وقتل كثير من المتصلين بهم، وعملت الأبواب وأوثقت على الدروب، ولم يغن ذلك شيئاً وأحرقت دار الشريف المرتضى على الصراة (وهي دار علم للشريف المرتضى كانت بالجانب الغربي من بغداد)... وكان هذا الاختلاط من شهر رجب سنة 415 إلى آخر سنة 416 (هـ)..

- وداوني بالتي كانت هي الداء

تجدر الإشارة إلى أن الدعوة الاسماعيلية لم تكن

الوحيدة من بين الفرق الباطنية التي تعاطت مع الفتوة الفوضوية من أجل النكاية بخصومها وتحقيق مآربها السياسية. ذلك أن الهيمنة الشيعية مدت هي الأخرى رواق استقلالها على هذه الفتوة، وهو أمر جعل أهل السنة والجماعة يعملون بالقول الشائع «وداوني بالتي كانت هي الداء» إذ كان هؤلاء يعتمدون بدورهم على ذلك النوع من الفتوة لمبارزة خصومهم المذهبيين في نفس الميدان وبنفس الأسلوب والأدوات..

فلقد أخبرنا ابن جبير في رحلته، عند كلامه عما رآه في بلادنا (سورية الطبيعية المعروفة تاريخياً باسم بلاد الشام) من الفسيفساء الدينية والتجمعات المنتمية إلى الفرق والطوائف المذهبية فقال: «... وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة، وهم أكثر من السنيين بها، وقد عملوا بمذاهبهم، وهم فرق شتى؛ منهم الرافضة وهم السبّابون، ومنهم الإمامية والزيدية... إلى أن يقول: .. وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف «بالنبوية» سنيون يدينون بالفتوة، وبأمور الرجولة كلها، وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها، يحزمون السراويل فيلحقونه بهم، ولا يرون أن يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به، لهم في ذلك مذاهب عجيبة، وإذا أقسم أحدهم لفتوّة برّ بقسمه، وهم يقتلون هؤلاء الروافض أين ما وجدوهم، وشأنهم عجيب في الإلفة والائتلاف.

بل إن الحنابلة، الأصوليين، وجد تصلبهم المذهبي ترحيباً لدى الفتيان الذين كان التزمّت والتشدّد في الدين يستهويهم ويثيرهم للعنف. ومن هؤلاء الفتيان كان يخرج المتظاهرون والمشاغبون حين يثور الفقهاء الحنابلة ضد السلطة عندما يتهمونها بالكفر أو يرمونها بأنها غير متحمسة كما يجب في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بكل حزم وصرامة.

ـ الفتيان في مهب الزعامات الشخصية

ما كاد القرن السابع للهجرة يطوي عقده السادس حتى أصبحت الفتوة تجمع تحت لوائها أشتاتاً من الزعامات الفردية ذات الأهداف الشخصية وهذا ما أشار إليه ابن المعمار بقوله: ولم تزل الفتوة تنتقل، هلمّ وجرّا إلى عصرنا هذا ـ (أي في نحو العقد الخامس من القرن السادس الهجري ـ حتى تفرّعت وصارت بيوتاً وأحزاباً وقبائل. كالرهاصية (نسبة إلى عمر الرهاص أو ابن الرهاص) والشحينية (؟) والخليلية (نسبة إلى النبي إبراهيم الخليل) والمولدية (؟) والنبوية (نسبة إلى النبي إبراهيم الخليل) لما حدث بينهم من الاختلاف، وكل منهم ذهب إلى رأي. ولقد كانوا يحكمون ببطلان من لم يحاضروه، وينقلون من ينقلون عنهم إنكاراً، فلما لم يقضوا في الفتوة بأحكامها، ولم يقصّوا فيها بأثر السلف الصالح، وينسجوا على منوالهم، كثر الاختلاف بينهم، وقيل:

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتِّفَاقَ لَهُمْ
إِلَّا عَلَى شَجَبٍ وَالخُلْفُ فِي الشَّجَبِ

ـ الناصر لدين الله يؤمم الفتوة ويجمعها تحت لوائه

بعد أن تفاقمت الفوضى بين تنظيمات الفتوة، وتشرذمت فرق الفتيان وأصبحوا عند الناس يعرفون باسم «الأوباش» و«الذعّار» قيض الله للخلافة العباسية واحداً من فحول الرجال، هو الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بأمر الله الذي أصدر أمراً خليفياً بتأمم حركة الفتوة بجميع تشكيلاتها الطائفية وتنظيماتها الحزبية وعصبياتها البلدية والحرفية وأنعم نظره التام وفحصه الكامل في النسب، واختار كبيراً في الفتوة، الشيخ الصالح الزاهد العابد السَّعيد عبد الجبار بن صالح البغدادي، لما كان عليه من حسن السيرة والطريقة... استدعاه الناصر لدين الله وتفتى إليه، ولبس سراويل الفتوة منه، وبادر على التوّ إلى إنشاء فتوة البلاط ودعا إلى الدخول فيها جميع أمراء

العالم الإسلامي في زمانه. وبالفعل استجاب الناس لرغبة هذا الخليفة... فدخل الناس كافة، من الخاصّ والعامّ في هذه الفتوة «الناصرية» وسأل ملوك الأطراف «الفتوة» فأنفذ إليهم الناصر لدين الله الرسل ومن ألبسهم سراويل الفتوة بطريق الوكالة نيابة عنه، وانتشر ذلك ببغداد وتفتّى الأصاغر والأكابر..

وأنفذ الناصر لدين الله سراويل الفتوة إلى ملك بلاد الروم المعروفة اليوم باسم «تركية» وهو عز الدين أبو المظفر كيكاوس ابن كيخسرو بن قلج أرسلان الثاني المتوفى سنة 615 هـ (1218 م).

وهذا أول دخول الفتوة بلاد الأتراك.

وذكر بطرس غالي، في كتابه «الفتوّة عند العرب» الذي كتبه باللغة الفرنسية وطبع بباريس سنة 1919 م ص 25. «إن الفتوة الناصرية» شاعت في مشارق الأرض ومغاربها حتى بلغت أوروبة، فقد نشرت جريدة لوديبا (Le Debat) أن أحد أمراء المانية كتب إلى خليفة بغداد - وهو الناصر لدين الله - يرجوه أن يدخل في فتوّته ويكون من زملائه وأتباعه!.. وفي تأميم الفتوة وقصرها على «التنظيم الناصري» وحظرها على ما سوى ذلك، يقول ابن واصل، صاحب كتاب «مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب» وهو يتحدث عن سيرة الخليفة الناصر لدين الله:

«.. وكان يميل إلى رمي البندق، واللعب بالطيور المناسيب، ولبس سراويل النبوة والفتوة، وكاتب سائر ملوك الأطراف في أن ينتموا إليه في رمي البندق وفي الفتوة، فبطّل الفتوة في البلاد جميعها إلّا الفتوّة له، وادّعوا له في رمي البندق، ووصل رسوله إلى حماه في أيام الملك المنصور (ناصر الدين أبو المعالي محمد) رحمه الله، وتقدم إليه بأن يلبّس للخليفة سراويل الفتوة ويلبّس الأكابر له.. فتقدّم الملك المنصور بأن يعمل خطبة في الفتوة، فعمل والدي - أي والد واصل - رحمه الله خطبة بديعة في هذا المعنى، واستشهد بآيات من القرآن الكريم منها قوله تعالى: **«قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يذكُرُهُمْ» (سورة الأنبياء، الآية 60)** ومنها قوله تعالى **«إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إلى الكَهْفِ». (سورة الكهف، الآية 10)**

[وأورد] من عمل الطاعات، واجتناب المآثم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونصر المظلوم على الظالم، وإغاثة الملهوف، وحفظ الجار، وغير ذلك مما يشترطونه في الفتوة؛ وقرئت هذه الخطبة بمحضر من السلطان والأكابر، وكان القاضي بحماه يومئذٍ بهاء الدين أبا اليسر بن موهوب، فأمره السلطان بلبس سراويل الفتوة في المجلس، فلبسها ولبّسوها الجماعة».

- شرائط الفتوّة

وللفتوة شرائط إذا توفرت في الشخص أمكنت تفتيته، وإذا لم تتوفر حيل بينه وبين الدخول في عداد زمرة الفتيان. وقد حدد ابن المعمار الحنبلي نوعية هذه الشرائط وعددها على النحو التالي:

1 - الذكورية. إذ انها فطنة الكمال والشرف. أما النساء فإنهنّ يُتّخذن مفرشاً للذكور، وذلك ذلٌّ وهوان. ولما كان الرجال قوّامين على النساء، لذلك استحقوا الاختصاص بالفتوة.

2 - البلوغ. لأنّ به يُفْترض اكتمال البنية الجسدية وبه يحاسب الإنسان على التزام الطاعات، واجتناب المعاصي مع المثوبة على الأولى والعقوبة على الثانية، فلا يصح تفتية غير المكلف شرعاً.

3 - العقل: إذ به يميّز الإنسان الخير من الشر، وهو الآلة لنا في إتقان أعمالنا، والاستهداء إلى الخير، وتمييزه عن الشر للكفّ عنه أو اجتنابه.

4 - الدين: إذ ان الدين أصل والفتوّة فرع له، فلا فرع من غير أصل، والفتوّة لا يلزم بها الإيمان بما يلزم به الشرع.

5 - استقامة الحال: أي ان يكون خلوقاً، لا مخنّثاً

ولا خُنثى، وليس فيه عيب يشينه أو يُلحق بـه وصمة تخدش سُمعته أو دينه.

6 ـ المروءة: وهي الاندفاع للمكرمـات، والابتعاد عن المحرمات، وأهم مظاهر المروءة الحياء عن فعل القبائح.

نقول: إذا اجتمعت هذه الشرائط الستـة في طالب التَّفْتِية قبـل طلبـه وتمّت نسبتـه إلى جمـاعـة الفتيـان، وجـرى عليـه الشـدّ والتكميـل وشرب المـاء المملح. وهذه المراسم هي كالتالي:

1 ـ الشدّ:

وهو مبدأ العهد وانعقاده، وسبب دخول الشخص في سلك الفتوّة، والشدّ هـو أن يعطى لـطالب التفتية ما يشدّ به وسطه، ويكـره أن يكون الشيءالـذي يُشدّ به شبيهاً بالزنّار الذي يمدّه النصارى في أوساطهم عند صلاتهم في الكنيسة.

2 ـ التكميل:

وهو كمال العهد وتمامه، والمكمّل هو طالب التفتيـة الذي يُعطى السراويل أو السلاح، إمّـا بعد الشـدّ أو ابتـداءً لصـلاحيتـه كـذلـك عنـد الكـبر، والسنّـة في التكميل بالسراويل. والسراويل عند الفتيان كالخرقـة عند المتصوفة.

3 ـ الشّرْب:

وهو الماء المملّح يشربـه طالب التفتيـة علامـة على استعداده لتحمّل الحياة الشائكة والمرهقة التي تقتضيها الفتوّة.

وبعد،

هـذه سطور سريعـة من تاريـخ الفتوّة التي عـرفها الشرق العـربي خلال العصر الـوسيط. ولقـد أصبـح هـذا التاريـخ جزءاً من المـاضي، بيـد أننـا، في أيـام نشـأتنا الأولى، عنـدمـا كنّـا في ميعـة الصبـا وريعـان الشباب أدركنا ما تبقى من البصمات الـدالة عـلى هذه الفتوة على تقاليدنـا المحلية يـوم كان «الفتى» في بلدنـا يعرف بالأسماء التالية:

1 ـ قبضاي، كلمة تركية معناها القوي الشجاع.

2 ـ زكرت: أصل هذه الكلمة فـرنسية (Escorte) بمعنى حـارس أو خفـير وهـو الشخص المكلف بحراسة أحد الرؤساء أو الأعيان وملازمته لهذه الغاية.

3 ـ قره داغلي: كلمـة تركيـة مركبـة من لفظتـين: قره، بمعنى أسود وداغـلي بمعنى جبلي، وكـانت تـطلق عـلى الـرجـل الشجـاع الشـديـد الأسر تشبيهاً له بابن الجبل الأسود (في بلاد البلغـار) الذي كان مشهوراً بالبأس الشديد.

4 ـ لا بـالله قلبي: أصـل هـذا اللفظ المـركب مصـطلح عامي يعني أنـا والله صـاحب قلب، أي شجـاع وقـوي (والقـاف تلفظ كـالجيم المصرية).

5 ـ عمـك خالـك: أي الـذي يخـاطب الآخـرين بكلمـة يـا عم ويـا خـال بـطريقـة الاستعـلاء والإدلال بالشخصية القوية.

6 ـ زلمة، ومعناها الرجـل بكل مـا في هذه الكلمـة من معنى الرجولة.

7 ـ شيخ الشباب: أي رئيس جماعة القبضايات أو واحد منهم.

8 ـ أبو الشباب، قريب من المعنى السابق.

9 ـ فتوّة، بمعنى القبضاي، وجمعها فتوات.

10 ـ زول، بمعنى رجـل صـاحب شهـامـة وأريحيـة واندفاع وغيرة.

11 ـ الشبان، بمعنى القبضايـات. وكان أبنـاء جيلنا قبل نحو نصف قرن يطلقون على زعيم الشبان لقب «العقيـد» بقـاف كـالجيم في لهجـة أهـل القاهرة.

المصادر

- **الكامل** ـ لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد ـ ج 1 - 2 طبع مطبعة نهضة مصر ـ الناشر مكتبة مصر ومطبعتها.
- **الأغاني** ـ تأليف أبي الفرج الأصفهاني ـ القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية 1935 م.
- **كتاب الفتوة** ـ تصنيف الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي المكارم المعروف بابن المعمار البغدادي الحنبلي المتوفى سنة 942 هـ ـ حققه ونشره الدكتور مصطفى جواد والدكتور محمد تقي الدين الهلالي والدكتور عبد الحليم النجار والدكتور أحمد ناجي القيسي. مطبعة شفيق ـ الناشر، مكتبة المثنى ـ بغداد 1958 م.
- **تاريخ الأمم والملوك** ـ للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، الناشر، المكتبة التجارية الكبرى ـ بمصر سنة 1357 هـ 1939 م.
- الإمام القشيري، سيرته ـ آثاره ـ مذهبه في التصوف، بقلم د. إبراهيم بسيوني ـ مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية (بالقاهرة) سنة 1392 هـ 972 م.
- **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار** ـ تأليف دكتور حسن الباشا ـ ملتزم النشر والطبع مكتبة النهضة المصرية سنة 1957 م
- **تاريخ اسبانية الاسلامية أو «كتاب أعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام** ـ لذي الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب السلماني، تحقيق وتعليق إ. ليفي برفنسال ـ دار المكشوف ـ بيروت سنة 1956 م.
- **كتاب الجماهر في معرفة الجواهر** ـ تصنيف الأستاذ أبي الريحان محمد بن أحمد البيروني المتوفى في عشر الثلاثين وأربعمائة من الهجرة، طبع ونشر عالم الكتب طبعة ثالثة سنة 1404 هـ 1984 م ـ بيروت.
- **أهل الإسلام** ـ لويس غارديه، ترجمة صلاح الدين برمدا ـ مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق سنة 1981.
(Louis Gardet - Les Hommes de l'Islam)
- **حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي** ـ د. محمد رجب النجار ـ عالم المعرفة ـ الكويت شوال ـ ذو القعدة 1401 هـ ـ سبتمبر (أيلول) 1981 م.
- **كتاب الفرج بعد الشدة** ـ للقاضي أبي علي المحسِّن بن علي التنوخي المتوفى سنة 384 هـ.
- **كتاب الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم** ـ ألفه أبو منصور عبد القاهر بن قاهر بن محمد البغدادي المتوفى سنة 429 هـ، وقف على طبعه وتعليق حواشيه محمد بدر ـ مطبعة المعارف بمصر.
- **كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ـ تأليف أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي المتوفى سنة 597 هـ (1200 م) ـ طبع دار الثقافة ـ بيروت.
- **رحلة ابن جبير** ـ لأبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، الطبعة الأولى سنة 1326 هـ 1908 م ـ طبع بمصر بمطبعة السعادة.
- **الفتوّة عند العرب** ـ تأليف بطرس غالي (بالفرنسية) طبع بباريس سنة 1919 م.
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ـ للقاضي جمال الدين بن واصل الحموي المتوفى سنة 697 هـ، راجعه وقدم له الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ـ طبع بمصر سنة 1274 م.
- **كتاب تجارب الأمم** ـ لأبي علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه، اعتنى بالنسخ والتصحيح هـ. ف. آمدروز ـ طبع بمطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر سنة 1333 هـ 1915 م.
- **دولة الإسلام في الأندلس ـ الخلافة الأموية والدولة العامرية** ـ تأليف محمد عبد الله عنان ـ الطبعة الثالثة، الناشر مؤسسة الخانجي بمصر سنة 1380 هـ 1960 م.
- **مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس** ـ تأليف عبد الكريم التواني نشر وتوزيع مكتبة الرشاد ـ الدار البيضاء ـ طبعة أولى سنة 1967 م.